رؤية الشيخ محمّد الغزالي لرواية «اتّباع الأمم السابقة»

قلّدناهم في انحدارهم لا في نهوضهم

أ.عبير عبد الرحمن ياسين

من بين مؤلّفات العالم الجليل الراحل الشيخ محمّد الغزالي كتاب (كيف نتعامل مع القرآن)، الذي صدر عنه في أواخر عمره المديد الحافل بالعطاء المتميّز، وقد تتبّعت السيّدة عبير ياسين ما قاله الشيخ الغزالي - وغيره - في موضوع اتّباع هذه الأمّة الأُممَ السّابقة، وقدّمت نصّاً يستحقّ العناية، وقد اختارته «شعائر» - بتصرّف - لهذا الملف.

«لاحظت أنّ الرّسول صلّى الله عليه [وآله] وسلّم حذّرنا من اتّباع اليهود والنّصارى.

[ونحن] نحذر أن نكون كاليهود في تجسيد الله، وكالنصارى في نبوّة المسيح.

لكن قال صلى الله عليه وآله: **لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ وَذِراعاً بِذِراعٍ** (الحديث رواه البخاري ومسلم)، ومع هذا لم أرَ بحثاً في تتبّعنا لليهود والنّصارى في تفكيرنا، وفي أخلاقنا، وفي أعمالنا.

ببساطة، انحدرنا وانتهى الأمر، استطعنا أن نقلّدهم بانهيارهم ولم نستطع أن نقلّدهم في نهوضهم، وانتقلت إلينا علل التديّن [المحرّف].

اعتقد أنّ ما حدث اليوم في الأُمّة الإسلاميّة هو ما حدث في الأمم الأخرى تاريخيّاً والعقاب الإلهي أنّ الله نزع قيادة البشرية من أيدي المتديّنين ووضعها في العلمانيّين». (كيف نتعامل مع القران، محمد الغزالي: ص ١٥٨)

مواطن تشابه المسلمين مع اليهود والنصارى

من الناحية الفكرية، وتشمل:

١) نهي القرآن عن الوقوع في ما أخذه على علماء أهل الكتاب (الأحبار والرّهبان) من الاختلاف في كتاب الله.

٢) النّهي عن اتّباع الآباء السابقين دون تفكير وتمحيص.

٣) النّهي عن تزكية النفس في مقابل رمي الخصوم بكلّ سوء.

مصائب الاستبداد الدّيني في واقعنا المعاصر

الاختلاف في الكتاب من بعد العلم:

قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هود:١١٠-١١٢

وتكرّرت الآية في موضعٍ آخر من القرآن الكريم.

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ الجاثية:١٦-١٧.

- ﴿..بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ الحشر:١٤.كان من نتيجة هذا الاختلاف في الدّين أنّه أدّى إلى العداوة والأحقاد بينهم، كما في قوله تعالى:

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ البقرة:١٧٦.

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ

أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ آل عمران:١٩-٢٠.

- ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ .. ﴾ النحل:١٢٤-١٢٥.

- ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ المائدة:٤٨.

ليس هناك إكراه لأهل الكتاب على اعتناق عقيدة الإسلام، وقد أمر الله رسوله والمسلمين بأن يتركوهم وما يختارون في الدّنيا من الدّين، وأمرهم في ذلك يفوّض لله يوم القيامة لمحاسبتهم. [و] إذا كان هذا هو المنهج المتبّع مع مَن يرفض عقيدتك، فما بالنا لا نجد في قلوب بعض المسلمين مُتّسعاً لتقبّل الاختلاف مع إخوانهم في العقيدة.

التأويل من أبرز أسباب الاختلاف

التأويل الذي حذّر منه الرّسول (صلّى الله عليه وآله) وقد وقع فيه المسلمون، كما فعل أهل الكتاب، ما أدّى إلى انقسامهم. قال تعالى:

- ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ .. ﴾ الأعراف:٥٢-٥٣.

معنى تأوّل الكلام: الخطاب هنا مُوجّهٌ لأهل الكتاب، وفيه إشارة واضحة إلى أنّ القرآن خطابه واضح ومفصّل ﴿فَصَّلۡنَٰهُ﴾ بيّناه بالأخبار والوعد والوعيد وكلّها تؤدّي إلى إشاعة الرحمة والهداية للمؤمنين.

فالتأويل قد يغطّي على المعاني الواضحة التي أرادها ربّ العالمين، والتي عبّر عن تجاهلها بالنسيان، ونفهم ذلك من الأثر الذي أحدثته كلّ فرقة من تأويلٍ وادّعت أنّ هذا مراد الشارع لكي تجتذب الناس إليها.

وكان لهذا التأويل الأثر السّيِّءُ، لأنه أحدث خصومة وعداء، وليس هذا مراد ربّ العالمين.

وتأويل أهل الكتاب كان طريقه إخفاء بعض تعاليم الله أو تأويلها بما يوافق هواهم، والادّعاء بأن هذا من عند الله، وهذا مراده أو كلامه، وما ذلك إلّا بسبب فساد قلوبهم ونيّاتهم وإرادتهم السّوء كما قال تعالى: ﴿.. فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ .. ﴾ آل عمران:٧.

أمّا الراسخون في العلم فيؤمنون به كلّه على ظاهره لأنّه واضح وجليّ، دون تأويل فاسد يخفي أو ينفي الكثير ممّا حواه كتاب الله من آيات مُفصّلات أريدَ إيقافُ العمل بها ونسيانها. يقول الله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ .. ﴾ آل عمران:٧: أي أصله المعتمد عليه في الأحكام.

﴿ .. وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ .. ﴾ آل عمران:٧: لا تُفهم معانيها كأوائل السّور.

وجعله كلّه محكماً في قوله: ﴿ .. أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ .. ﴾ هود:١، ومتشابهاً كما في قوله: ﴿ .. كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا .. ﴾ الزمر:٢٣، بمعنى أنّه يشبه بعضه بعضاً في الحُسن والصّدق.

﴿ .. فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ .. ﴾ آل عمران:٧: ميل عن الحقّ.

﴿ .. فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ .. ﴾ آل عمران:٧: طلب (الفتنة) لجهّالهم بوقوعهم في الشبهات واللبس.

﴿ .. وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ .. ﴾ آل عمران:٧: تفسيره.

﴿ .. وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ .. ﴾ آل عمران:٧: وحده.

﴿ .. وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ .. ﴾ آل عمران:٧: الثابتون المتمكّنون.

﴿ .. يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ .. ﴾ آل عمران:٧: أي بالمتشابه أنّه من عند الله ولا نعلم معناه.

﴿..كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا..﴾ آل عمران:٧: كلّ من المحكم والمتشابه.

﴿.. وَمَا يَذَّكَّرُ..﴾ آل عمران:٧: يتّعظ ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ آل عمران:٧: أصحاب العقول.

* ويقولون أيضاً إذا رأوا من يتّبعه:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا..﴾ آل عمران:٨: لا تُمِلها عن الحقّ بابتغاء تأويله الذي لا يليق بنا، كما زاغت قلوب أولئك.

﴿..بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا..﴾ آل عمران:٨: أرشدتنا.

﴿.. وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً..﴾ آل عمران:٨: تثبّتاً؛ والغرض من الدّعاء بذلك بيان أنّ همّهم أمر الآخرة، ولذلك سألوا الله الثبات على الهداية لينالوا ثوابها.

روى الشيخان عن عائشة ".." قالت: «تلا رسول الله صلّى الله عليه وآله هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ..﴾ آل عمران:٧، إلى آخرها، وقال: **فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**».

وروى الطّبراني في (الكبير) عن أبي موسى الأشعري أنّه سمع النّبيّ صلّى الله عليه وآله يقول: «**مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلّا ثَلاثَ خِلالٍ**...»: وذكر منها أن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويلَه وليس يعلم ﴿..تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ آل عمران:٧.

***

والتأويل الفاسد من أجل الدّفاع عن المذهب أو الطائفة - والادّعاء بأنّ هذا مراد الشارع - يتساوى مع ما ذكره الله سبحانه في أهل الكتاب بادّعائهم وافترائهم الكذبَ على الله، وبالتالي فإنّ معيار الإيمان والعقل الذي أشاد الله به [في] عباده المتّقين هو إرادة الآخرة، لا العلوّ في الدّنيا والتّطاحن فيها. قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص:٨٣.

من أسباب الاختلاف اتّباع هوى النّفس

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧.

«والآية نزلت في (بلعم بن باعوراء) وهو من علماء بني إسرائيل، ولو شاء الله لوفّقه للعمل بآياته ورفعه إلى منازل العلماء، ولكنّه سكن إلى الدّنيا ومال إليها واتّبع هواه، فصار لاهثاً ذليلاً بكلّ حال؛ مثل الكلب في الخسّة والوضاعة». (من تفسير الجلالين).

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ الفرقان:٤٣.

﴿..وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى..﴾ القصص:٥٠.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الجاثية:٢٣.

وقعنا فيما وقع فيه أهل الكتاب من اتّباع هوى أنفسهم مع أن الله حذّرنا من ذلك، فقال تعالى:

- ﴿..وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ البقرة:١٢٠.

- ﴿..وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البقرة:١٤٥.

- ﴿..وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ الرعد:٣٧.

ما سبق يمثّل تحذيراً من اتّباعنا هوى أهل الكتاب، وهنا تحذير آخر من اتّباع هوى النّفس. قال تعالى: ﴿..فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ..﴾ النساء:١٣٥، كما أثنى الله سبحانه على من يقاوم هواه، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ النازعات:٤٠-٤١. "..".